إِنْ تَـدْعُ يَـا سَـيْـفُ لِـتَـسْـتَـعِـيـنَـهُ
يُـجِـبْـكَ قَـبْـلَ أَنْ تُـتِـمَّ سِـيـنَـهُ(١)
أَدَامَ مِـنْ أَعْـدَائِـهِ تَـمْـكِـيـنَـهُ
مَـنْ صَـانَ مِـنْـهُـمْ نَـفْـسَـهُ وَدِيـنَـهُ(٢)

الرأي قبل شجاعة الشجعان

يمدحه وأنشده إياها بآمد وكان منصرفاً من بلاد الروم وذلك في شهر صفر سنة خمس وأربعين وثلاث مئة (٩٥٦م):

[الكامل]

الـرَّأْيُ قَـبْـلَ شَـجَـاعَـةِ الـشُّـجْـعَـانِ
هُـوَ أَوَّلٌ وَهْـيَ الْـمَـحَـلُّ الـثَّـانِـي(٣)
فَـإِذَا هُـمَـا اجْـتَـمَـعَـا لِـنَـفْـسٍ حُـرَّةٍ
بَـلَـغَـتْ مِـنَ الْـعَـلْـيَـاءِ كُـلَّ مَـكَـانِ(٤)

= سواه من الملوك كالحيتان في خضمه العظيم، كما أنه شمس تشمل الكون بضيائها وفيض حبّها وعطائها، حتى إن الشمس الطبيعية تتمنّى أن تكون على شاكلته.

(١) يُنوّه الشاعر بسرعة استجابة سيف الدولة لمن يستنجده في كلّ ملمة نزلت به، فإذا به يلبي دعوة الداعي دون إبطاء، فقبل أن يلفظ المستنجد السين يكون سيف الدولة قد هبّ لنجدته.

(٢) يدعو الشاعر للأمير بدوام ملكه وسيطرته على أعدائه، وذلك برعاية اللّه تعالى له الذي صان له دينه وحفظ عليه نفسه ورعاه وحماه.

(٣) و (٤) المِرّة: القوة والشدّة. يروى «مرّة» بدلاً من «حرّة». ورد البيتان التاليان في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٥٨. يبدأ الشاعر قصيدته بمطلع حكمي، مفاده أن العقل هو أهم ما يُميّز البشر عمّا سواهم من كائنات، وهو بلا ريب المحرّك الأول المجدي في حركة بني البشر في معراجهم إلى تحقيق أسمى الغايات، أما الشجاعة فإنها قدر مشترك بين البشر ذوي العقول السليمة وبين سواهم من بني جنسهم وأفراد الحيوانات الضارية، كالأسود وسواها؛ فالشجاعة التي لا تعتمد على العقل هي بمثابة سلاح فتّاك قد يقتل مستعمله الجاهل بطريقة استعماله قبل أن يقتل عدوّه. ولكن في حال اجتماعهما معاً لعاقل يُحسن استعمالهما على الوجه الأكمل والأسلم، فلا بدّ من إدراكه أعلى مراتب الفلاح والتوفيق والنجاح.

وَلَـرُبَّـمَـا طَـعَـنَ الْـفَـتَـى أَقْـرَانَـهُ
بِـالـرَّأْيِ قَـبْـلَ تَـطَـاعُـنِ الْأَقْـرَانِ[١]
لَـوْلَا الْـعُـقُـولُ لَـكَـانَ أَدْنَـى ضَـيْـغَـمٍ
أَدْنَـى إِلَـى شَـرَفٍ مِـنَ الإِنْـسَـانِ[٢]
وَلَـمَـا تَـفَـاضَـلَـتِ الـنُّـفُـوسُ وَدَبَّـرَتْ
أَيْـدِي الـكُـمَـاةِ عَـوَالِـيَ الـمُـرَّانِ[٣]
لَـوْلَا سَـمِـيُّ سُـيُـوفِـهِ وَمَـضَـاؤُهُ
لَـمَّـا سُـلِـلْـنَ لَـكُـنَّ كَـالْأَجْـفَـانِ[٤]
خَـاضَ الْـحِـمَـامَ بِـهِـنَّ حَـتَّـى مَـا دَرَى
أَمِـنِ احْـتِـقَـارٍ ذَاكَ أَمْ نِـسْـيَـانِ[٥]

(١) و (٢) الأقران، الواحد قِرن: الكفء. ومن الجائز أن يتغلب المرء العاقل بحسن رأيه وفصاحة حجّته على سواه ممن لا يُحسن التفكير في كلّ أموره ويتصرّف بشكل عشوائي، فيبوء بفشل ذريع، وبفضل العقل تميّز المرء من العقلاء على أقوى الأسود مكانة وأشرسها، ولولا ذلك لكان للأسد الضعيف الغلبة لقوّته وشراسته.

(٣) تفاضلوا: اختلفوا بوفور عقولهم. دبرت: رتبت ونظمت. الكماة، الواحد كمي: البطل الشاكي السلاح. العوالي: صدور الرماح. المران: الرماح اللينة. وبفضل العقول، اختلف بنو البشر، وهم متفاوتون باستعمال عقولهم، وهذا طبيعي، لذا كان تصنيفهم بناءً على قدرتهم على الاستفادة ممّا لديهم من عقول تساعدهم على أنجع الوسائل في استعمال السلاح المؤدي إلى النصر.

(٤) يقصد الشاعر بسميّ السيوف الأمير سيف الدولة. المضاء: القطع. سللن: جرّدن من أغمادها. الأجفان، الواحد جفن: الأغماد. يتخلّص الشاعر إلى مدح الأمير، إنه سميّ السيوف، فلولا همّته العالية واجتهاده في أموره لما تمكن من شحذ الهمم، فإذا بالسيوف تُجرّد من أغمادها فتُستعمل بما كانت له، وبذلك جنى ثمرات النصر المبين على عدوّه، وإلّا فإن تلك السيوف ميتة كأغمادها لا تغني عنها شيئاً.

(٥) الحِمام، بكسر الحاء: الموت. الموت بحر متلاطم في حرب لا ترحم، ولا بدّ من سبّاح ماهر لا يخاف ولا يرهب الموت ليخوض غمارها ويصل إلى شاطئ الأمان، وعليه فقد نسي الموت وأسبابه ونتائجه، واستهان بالحياة فكانت له الحياة والنصر المظفّر.

وَسَعَى فَقَصَّرَ عَنْ مَدَاهُ فِي الْعُلَى
أَهْلُ الزَّمَانِ وَأَهْلُ كُلِّ زَمَانِ[١]
تَخِذُوا المَجَالِسَ فِي الْبُيُوتِ وَعِنْدَهُ
أَنَّ السُّرُوجَ مَجَالِسُ الْفِتْيَانِ[٢]
وَتَوَهَّمُوا اللَّعِبَ الْوَغَى وَالطَّعْنُ فِي الْـ
ـهَيْجَاءِ غَيْرُ الطَّعْنِ فِي الْمَيْدَانِ[٣]
قَادَ الجِيَادَ إِلَى الطِّعَانِ وَلَمْ يَقُدْ
إِلَّا إِلَى الْعَادَاتِ وَالْأَوْطَانِ[٤]
كُلُّ ابْنِ سَابِقَةٍ يُغِيرُ بِحُسْنِهِ
فِي قَلْبِ صَاحِبِهِ عَلَى الْأَحْزَانِ[٥]
إِنْ خُلِّيَتْ رُبِطَتْ بِآدَابِ الْوَغَى
فَدُعَاؤُهَا يُغْنِي عَنِ الْأَرْسَانِ[٦]

(١) و (٢) المدى: الغاية. أهل زمانه: معاصروه. يُتابع الشاعر إشادته بالأمير، لقد خاض مباراة التفوّق، فإذا به يبلغ أعلى مراتب المجد متخطياً معاصريه حتى إنه تخطّى أبناء سائر الأزمنة في الماضي والمستقبل، فكان جلّ همومهم الركون إلى الدعة لا يُكلّفون نفوسهم عناءً، فبيوتهم خير مأوى لهم، أما الأمير فقد أنف من حياة التراخي والكسل ووجد في مجاهدة الأعداء هدفه الأسمى فراح يمتطي فرسه ويُعمل بأعدائه تقتيلاً وبذلك بنى أمجاده.

(٣) ورد البيت في دلائل الإعجاز، للجرجاني: ١٥٠. الوغى والهيجاء: من أسماء الحرب. يُعقّب الشاعر كلامه أن أمثال هؤلاء الملوك كانوا يظنون أن اللعب بالسلاح للترفيه والتسلية ولم يفطنوا أن الحرب هو الموت، وإن انتبهوا إلى هذه الحقيقة فهم بلا شكّ جبناء لا يستحقون عروشهم.

(٤) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٠١. يُنوّه الشاعر بإرادة الأمير؛ فقد تقدّم جيشه بفرسان قد اعتادوا على مجالدة الأعداء، وهم دوماً في مواطنهم حيثما حلّوا؛ فساحات القتال مواطنهم المعتادة.

(٥) سابقة: أي فرس سابقة. ومن سبب تآلف وتواد ينشأ بين الفارس وجواده الذي يمتاز بسرعته الفائقة التي ورثها عن أمه أن الفارس يُداخله سرور لرؤيته فرسه.

(٦) وردت الأبيات الثلاثة المتوالية في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٠٤. خليت: =

فـي جَـحْـفَـلٍ سَـتـرَ الْـعُـيُـونَ غُـبـارُهُ
فَـكَـأَنَّـمَـا يُـبْـصِـرْنَ بِـالآذَانِ(١)
يَـرْمِـي بِـهَـا الْـبَـلَـدَ الـبَـعِـيـدَ مُـظَـفَّـرٌ
كُـلُّ الْـبَـعِـيـدِ لَـهُ قَـرِيـبٌ دَانِ(٢)
فَـكَـأَنَّ أَرْجُـلَـهَـا بِـتُـرْبَـةِ مَـنْـبِـجٍ
يَـطْـرَحْـنَ أَيْـدِيَـهَـا بِـحِـصْـنِ الـرَّانِ(٣)
حَـتَّـى عَـبَـرْنَ بِـأَرْسَـنَـاسَ سَـوَابِـحـاً
يَـنْـشُـرْنَ فِـيـهِ عَـمَـائِـمَ الْـفُـرْسَـانِ(٤)
يَـقْـمُـصْـنَ فِـي مِـثْـلِ الْـمُـدَى مِـنْ بَـارِدٍ
يَـذَرُ الـفُـحُـولَ وَهُـنَّ كَـالْـخِـصْـيَـانِ(٥)

= تركت. الوغى: من أسماء الحرب. الأرسان، الواحد رسن: مقود الدابة. يمدح الشاعر جياد الأمير المدرّبة إنها تلتزم بآداب الحروب لمزاولة المعارك ولذا فإنها لا تُبارح أمكنتها إذا تُركت وألمّ بفارسها مكروه وكأنها أُلجمت، فهي ليست بحاجة إلى أرسان تُشدّ بها.

(١) الجحفل: الجيش العرمرم العظيم. يُردف الشاعر وصف تلك الخيول في ميدان القتال، وقد تصاعد الغبار وسدّ الرؤية، فإذا بتلك الجياد تستعيض عن الرؤية بآذانها التي تنصبها مستهدية، فكأنها تبصر بها.

(٢) المظفّر: المنتصر وهو سيف الدولة. يُتابع الشاعر أن تلك الخيول وسيلة من تعوّد على الانتصارات، فهو يُوجهها إلى أماكن بعيدة، فإذا بالمسافات تنضوي لتقرّب النصر لسيف الدولة الصادق العزم والإرادة.

(٣) منبج: من مدن بلاد الشام. الرّان: من حصون الروم. يُنوه الشاعر بشدّة عدو تلك الجياد، إنها تنشط من مرابضها في منبج فتبلغ حصن الران بسرعة البرق، كأنها تطير بخطوة واحدة مختصرة الأبعاد.

(٤) و (٥) ورد البيتان التاليان في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٠٤. أرسناس: نهر في بلاد الروم يمتاز بشدّة برودة مائه. يتابع الشاعر وصف أعمال تلك الجياد، فقد عبرت نهر أرسناس رغم شدّة برودة مائه، وهنّ يسبحن ممّا يدلّ على شدّة جريان النهر وعمقه، فإذا بعمائم فرسانها تنتشر بسبب رشاش الماء وقوّة جريانه وقوّة الرياح في تلك الأمكنة، وهن يثبن في تلك المياه الشديدة البرودة كأنها سكاكين تُمزّق الأحشاء، لذا فالفحل إذا ما خاض تلك المياه التي تكاد تتجمّد تجمّدت خصيتاه.

وَالـمَـاءُ بَـيْـنَ عَـجَـاجَـتَـيْـنِ مُـخَـلِّـصٌ
تَـتَـفَـرَّقَـانِ بِـهِ وَتَـلْـتَـقِـيَـانِ(١)
رَكَـضَ الْأَمِـيـرُ وَكَـالـلُّـجَـيْـنِ حَـبَـابُـهُ
وَثَـنَـى الْأَعِـنَّـةَ وَهْـوَ كَـالـعِـقْـيَـانِ(٢)
فَـتَـلَ الـحِـبَـالَ مِـنَ الْـغَـدَائِـرِ فَـوْقَـهُ
وَبَـنَـى الـسَّـفِـيـنَ لَـهُ مِـنَ الـصُّـلْـبَـانِ(٣)
وَحَـشَـاهُ عَـادِيَـةٌ بِـغَـيْـرِ قَـوَائِـم
عُـقُـمَ الْـبُـطُـونِ حَـوَالِـكَ الْأَلْـوَانِ(٤)
تَـأْتِـي بِـمَـا سَـبَـتِ الـخُـيُـولُ كَـأَنَّـهَـا
تَـحْـتَ الْـحِـسَـانِ مَـرَابِـضُ الـغِـزْلَانِ(٥)

(١) العجاجة: الغبرة. يصوّر الشاعر خوض الجيش ذلك النهر؛ فالفرق تعبره تباعاً، فثمة فرق تغوص في أعماقه وتنتقل إلى شاطئه الآخر بينما ثمة فرق لا تزال في الشاطئ الأول منه تنتظر دورها في العبور، وليتمّ المشهد فثمة غبار يتصاعد على طرفي النهر، ورغم ابتعاد شطري النهر، فقد التفت الأغبرة لعظم الجيش على اليابسة.

(٢) اللجين: الفضة. الحباب: فقاقيع الماء التي تطفو على سطحه. الأعنة، الواحد عنان: الأرسان. العقيان: الذهب. جرى الهجوم بسرعة عجيبة خاض سيف الدولة بجيشه النهر، فإذا بمياهه نقية فضيّة، وكانت المعركة خاطئة انتصر فيها الأمير، ورجع من حيث أتى، فإذا بالمياه تتّخذ اللون الأحمر لكثرة ما أمعن في القوم قتلاً.

(٣) الغدائر، الواحدة غديرة: الخصلة من الشعر، السفين، الواحدة سفينة. إنه انتصار عظيم؛ فالسبايا وفيرة، فإذا بالأمير يجعل ذوائب سباياه حبالاً لسفنه، وأخشاب صلبانهم التي آلت إليه من كنائسهم وأديرتهم جعلها سفنه التي رجع بها عبر النهر.

(٤) حشاه: ملأه. العادية: الراكضة. العقم، الواحد عقيم: من لا يلد. حوالك، الواحدة حالكة: سود. يصف الشاعر إعداد الأمير الجيّد للمعركة لضمان سبل نجاحها؛ فقد دفع بالسفن تجوب خضام عباب النهر، إنها تعدو بلا قوائم، لا تلد، ارتدت لون السواد لأنها كانت مقيّرة، بليت بالقار.

(٥) المرابض، الواحد مربض: مراح الأنعام من إبل وغنم وسواها. يُتابع الشاعر وصف المشهد؛ فالسفن تحوي السبايا اللواتي استحوذ عليهن الفرسان، إنهن على شيء من الجمال كأنهن غزلان، فبدت السفن مرابض لهن.

بَـــحْـــرٌ تَـــعَـــوَّدَ أَنْ يُـــذِمَّ لِأَهْـــلِـــهِ
مِـــنْ دَهْـــرِهِ وَطَـــوَارِقِ الْـــحِـــدْثَـــانِ[١]
فَـــتَـــرَكْـــتَـــهُ وَإِذَا أَذَمَّ مِـــنَ الْـــوَرَى
رَاعَـــاكَ وَاسْـــتَـــثْـــنَـــى بَـــنِـــي حَـــمْـــدَانِ[٢]
الْـــمُـــخْـــفِـــرِيـــنَ بِـــكُـــلِّ أَبْـــيَـــضَ صَـــارِمٍ
ذِمَـــمَ الـــدُّرُوعِ عَـــلَـــى ذَوِي الـــتِّـــيـــجَـــانِ[٣]
مُـــتَـــصَـــعْـــلِـــكِـــيـــنَ عَـــلَـــى كَـــثَـــافَـــةِ مُـــلْـــكِـــهِـــمْ
مُـــتَـــوَاضِـــعِـــيـــنَ عَـــلَـــى عَـــظِـــيـــمِ الـــشَّـــانِ[٤]
يَـــتَـــقَـــيَّـــلُـــونَ ظِـــلَالَ كُـــلِّ مُـــطَـــهَّـــمٍ
أَجَـــلِ الـــظَّـــلِـــيـــمِ وَرِبْـــقَـــةِ الـــسِّـــرْحَـــانِ[٥]

---

(١) و (٢) ورد البيتان التاليان في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٠٤. أذمّ: أجار. الحدثان: مصائب الدهر ونوائبه. الورى: البشر. بنو حمدان: عشيرة الأمير. يتحدث الشاعر عن النهر مخاطباً الأمير بأن النهر كان يذود عن عدوّه ويمنعهم من عاديات الزمان حتى أتاه سيف الدولة فإذا به يتخلى عن ذمامه ويرحب بجيش الأمير وعشيرته مستثنياً سواه من ذلك.

(٣) المخفرين: الحامين المجيرين. الأبيض: السيف. وأخفر: انتهك حرمة وذمّة. الصارم: السيف القاطع. يُعرّج الشاعر على مدح الحمدانيين؛ فبسيوفهم ينتهكون ذمم الملوك رغم اتّقائهم بدروعهم وجنودهم فيستبيحون ذممهم ويقتلونهم، فلا تنفعهم ولا تُغني عنهم شيئاً.

(٤) المتصعلكين: الذين يتّخذون في حياتهم عيش الصعاليك. كثافة ملكهم: عظمته وأبّهته. يتغنّى الشاعر ببني حمدان، إنهم يمتازون ببساطة حياتهم، يتواضعون لمواطنيهم كرم خلق وحبّ تواضع، رغم عظمة ملكهم وأبّهته، وأما في حروبهم فهم صعاليك أشداء على أعدائهم يخوضون الحروب ويستهينون بكل شيء في سبيل إعلاء شأنهم ونباهة ذكرهم.

(٥) التقيل: النوم في القيلولة عند الظهيرة. المطهّم: الحسن التام الخلق من الخيول. الأجل: الحين. الظليم: ذكر النعام. الربقة: العروة في حبل يُشدّ بها. السرحان: الذئب. يُتابع الشاعر مدح آل الأمير، إنهم أعراب في سلوكهم؛ فهم إذا كانوا في =

خَضَعَتْ لِمُنْصُلِكَ المَنَاصِلُ عَنْوَةً
وَأَذَلَّ دِينُكَ سَائِرَ الْأَدْيَانِ(١)
وَعَلَى الدُّرُوبِ وَفِي الرُّجُوعِ غَضَاضَةٌ
وَالسَّيْرُ مُمْتَنِعٌ مِنَ الإِمْكَانِ(٢)
وَالطُّرْقُ ضَيِّقَةُ المَسَالِكِ بِالْقَنَا
وَالكُفْرُ مُجْتَمِعٌ عَلَى الْإِيمَانِ(٣)
نَظَرُوا إِلَى زُبَرِ الحَدِيدِ كَأَنَّمَا
يَصْعَدْنَ بَيْنَ مَنَاكِبِ العِقْبَانِ(٤)
وَفَوَارِسٍ يُحَيِي الْحِمَامُ نُفُوسَهَا
فَكَأَنَّهَا لَيْسَتْ مِنَ الحَيَوانِ(٥)

= غزو أو صيد عمدوا إلى ظلال خيولهم المطهّمة يتفيّأون بها ويقيلون إذا اشتدّ الهجر وبواسطتها يُطاردون الظليم والذئب، فيكون ذلك إيذاناً بموتهما وهلاكهما.

(١) المنصل: السيف. عنوة: غصباً. يُخاطب الشاعر الأمير، فقد استطاع أن يُذلّ كلّ جبار عنيد يعتدّ بقوته رغماً عنه، كما أن دين الأمير قد أذلّ سائر الأديان فقهرها وكشف عوارها وضعفها.

(٢) و (٣) الدروب، الواحد درب: المداخل إلى بلاد الروم. الغضاضة: الذلّة. القنا: الرماح. يصف الشاعر تصادم جيوش الإيمان وجيوش الكفر، لقد تجمهر المسلمون وهم يهمّون بالتوغّل في بلاد الأعداء، إذ بالجموع الغفيرة لجيوش الأعداء الكثيرة المزدحمة تُغلق الدروب دون جيوش الأمير، وهم بين أمرين: إما الانسحاب والعودة من حيث أتَوْا والتقهقر وإما مقارعة الأعداء في أراضيهم؛ فالتراجع والانسحاب من المعركة معناه كسر شوكة جيش الأمير، فكان أن رفعوا سيوفهم وشرّعوا رماحهم، إنها معركة ضدّ الكفر.

(٤) ورد البيتان التاليان في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٠٤. الزبر، الواحدة زبرة: القطعة من الحديد، قصد بذلك سيوفهم. العقبان، الواحد عُقاب: من جوارح الطير. إنها نظرات متبادلة بين المسلمين والكفّار، وفجأة كانت سيوف المسلمين قد ارتفعت إيذاناً ببدء المعركة، إنهم فرسان قد تسربلوا بالحديد يمتطون خيولاً كأنها عقبان تنقض على فرائسها بسرعة وخفّة حركة.

(٥) الحمام، بكسر الحاء: الموت. نظر الروم نظر تفحّص، فأيقنوا أنهم أمام جنود وطّنوا =

مَـا زِلْـتَ تَـضْـرِبُـهُـمْ دِرَاكـاً فـي الـذُّرَى
ضَـرْبـاً كَـأَنَّ الـسَّـيْـفَ فِـيـهِ اثْـنَـانِ[١]
خَـصَّ الْـجَـمَـاجِـمَ وَالْـوُجُـوهَ كَـأَنَّـمَـا
جَـاءَتْ إِلَـيْـكَ جُـسُـومُـهُـمْ بِـأَمَـانِ[٢]
فَـرَمَـوْا بِـمَـا يَـرْمُـونَ عَـنْـهُ وَأَدْبَـرُوا
يَـطَـأُونَ كُـلَّ حَـنِـيَّـةٍ مِـرْنَـانِ[٣]
يَـغْـشَـاهُـمُ مَـطَـرُ الـسَّـحَـابِ مُـفَـصَّـلاً
بِـمُـثَـقَّـفٍ وَمُـهَـنَّـدٍ وَسِـنَـانِ[٤]
حُـرِمُـوا الَّـذِي أَمَـلُـوا وَأَدْرَكَ مِـنْـهُـمُ
آمَـالَـهُ مَـنْ عَـادَ بِـالْـجِـرْمَـانِ[٥]

= نفوسهم على الموت أو النصر؛ إنهم حقيقة من طينة بشرية رفيعة، فليسوا ممّن يرتمي على الموت بغباء، كالمتهوّرين أو كالحيوانات.

(١) و (٢) ورد البيتان التاليان في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٠٥. الدراك: المتابعة. الذرى، الواحدة ذروة: أعلى كل شيء. الجماجم، الواحدة جمجمة: عظم الرأس حيث يوجد الدماغ. يُخاطب الشاعر الأمير مثنياً على حسن فعاله، إنه باشر الفتك بالأعداء يُمعن فيهم قتلاً متتابعاً قاصداً رؤوسهم، فكأن السيف سيفان لتوالي الضربات وسرعتها، فكان التركيز على الرؤوس حيث المركز الرئيسي الدماغ وبشلّ الدماغ لدى العدوّ يسهل سلبه حياته.

(٣) و (٤) أدبروا: ولوا هاربين. الحنية: القوس. المرنان: الكثيرة الرنين. دبّ الرعب في قلوب الرماة من الأعداء، فإذا بهم يتخلّون عن قسيهم فيرمون نبالهم ويدوسونها بأرجلهم وهم يُولون الأدبار، فكان جزاؤهم قتلاً ذريعاً، مطر سحابه يفيض دماً، فتناولتهم الرماح والسيوف وأسنّة الرماح تُمعن فيهم قتلاً وتقطيعاً.

(٥) يروى «عاذ» بالذال بدلاً من «عاد». لقد كانوا يأملون أن ينالوا من الأمير هزيمة وقتلاً، فإذا بالدائرة تدور عليهم وينتهي أمرهم إلى النكال، ومن عاذ منهم ببيته ولجأ إليه فقد أدرك أمنيته فبقي على قيد الحياة، ومن أفلت من المعركة قبل اشتدادها فقد حفظ على نفسه حياته.

وَإِذَا الـرِّمَـاحُ شَـغَـلْـنَ مُـهْـجَـةَ ثَـائِـرٍ
شَـغَـلَـتْـهُ مُـهْـجَـتُـهُ عَـنِ الإِخْـوَانِ[١]
هَـيْـهَـاتَ عَـاقَ عَـنِ الْـعِـوَادِ قَـوَاضِـبٌ
كَـثُـرَ الْـقَـتِـيـلُ بِـهَـا وَقَـلَّ الْـعَـانِـي[٢]
وَمُـهَـذَّبٌ أَمَـرَ الْـمَـنَـايَـا فِـيـهِـم
فَـأَطَـعْـنَـهُ فِـي طَـاعَـةِ الـرَّحْـمٰـنِ[٣]
قَـدْ سَـوَّدَتْ شَـجَـرَ الْـجِـبَـالِ شُـعُـورُهُـمْ
فَـكَـأَنَّ فِـيـهِ مُـسِـفَّـةَ الْـغِـرْبَـانِ[٤]
وَجَـرَى عَـلَـى الْـوَرَقِ الـنَّـجِـيـعُ الْـقَـانِـي
فَـكَـأَنَّـهُ الـنَّـارَنْـجُ فِـي الْأَغْـصَـانِ[٥]

(١) المهجة: الروح. الثائر: طالب الدم. يأتي الشاعر بحكمة مصوّراً حال الروم، والهزيمة تحيق بهم، فكلّ واحد منهم همّته نفسه يعمل على حمايتها بأيّ شكل، وفي زحمة الصراع ينسى ما حوله حتى السبب الذي من أجله دُعي إليه لخوض المعركة، فإذا به يتخلّى عن الأصحاب والأحباب.

(٢) هيهات: اسم فعل ماض بمعنى بعد. العواد: الرجوع. القواضب: السيوف القاطعة. العاني: الأسير. يُتابع الشاعر حال القوم، وهم في هرج ومرج، لقد حاولوا الرجوع إلى ميدان المعركة ولكن حال دون أمانيهم سيوف قاطعة، فامتلأت الأرض بجثث القتلى، ونظرة عجلى كشفت لهم حقيقة الأمر، فمعظم جند العدو وقعوا صرعى أو جرحى، والقلة كانت في عداد الأسرى.

(٣) المنايا، الواحدة منية: الموت. لقد حال دون رجوع القوم إلى ميدان المعركة مهذب سيفه لا يردّ قضاءه مخلوق، إنه سيف الدولة، ذلك المدافع عن حمى بلاد الرحمن طاعة لإرادته وابتغاء مرضاته.

(٤) المسفة: الذي كاد يلامس الأرض في طيرانه من الطيور. يرسم الشاعر صورة حزينة لما حلّ بالقوم، تكاثر القتل فيهم، وتطايرت شعورهم السوداء، فإذا بها تغطّي الأشجار التي تكلّل ذلك الجبل. والمعلوم أن الروم كانوا شقراً!

(٥) النجيع: الدم. القاني: الشديد الحمرة. يُتمّ الشاعر رسم الصورة، فقد كلّل السواد الأشجار، والحمرة قد غطّت أوراق الأشجار لما جرى عليها من دماء القتلى، وبدت كأنها النارنج على الأغصان.

إِنَّ الـسُّـيُـوفَ مَـعَ الَّـذِيـنَ قُـلُـوبُـهُـمْ
كَـقُـلُـوبِـهِـنَّ إِذَا الْـتَـقَـى الْـجَـمْـعَـانِ[١]
تَـلْـقَـى الْـحُـسَـامَ عَـلَـى جَـرَاءَةِ حَـدِّهِ
مِـثْـلَ الْـجَـبَـانِ بِـكَـفِّ كُـلِّ جَـبَـانِ[٢]
رَفَـعَـتْ بِـكَ الْـعَـرَبُ الْـعِـمَـادَ وَصَـيَّـرَتْ
قِـمَـمَ الْـمُـلُـوكِ مَـوَاقِـدَ الـنِّـيـرَانِ[٣]
أَنْـسَـابُ فَـخْـرِهِـم إِلَـيْـكَ وَإِنَّـمَـا
أَنْـسَـابُ أَصْـلِـهِـم إِلَـى عَـدْنَـانِ[٤]
يَـا مَـنْ يُـقَـتِّـلُ مَـنْ أَرَادَ بِـسَـيْـفِـهِ
أَصْـبَـحْـتُ مِـنْ قَـتْـلَاكَ بِـالْإِحْـسَـانِ[٥]
فَـإِذَا رَأَيْـتُـكَ حَـارَ دُونَـكَ نَـاظِـرِي
وَإِذَا مَـدَحْـتُـكَ حَـارَ فِـيـكَ لِـسَـانِـي[٦]

(١) يردف الشاعر حكمة، مفادها أن الأقوياء تتوافق ألوان قلوبهم مع ألوان سيوفهم، فيكون اللون الأحمر سمة مشتركة بين الفريقين في المعارك، فالعزيمة والصدق في القتال يجعل السيوف تكتمل بالمضاء وقوة عزم المقاتلين.

(٢) الحسام: السيف البتّار، يرى الشاعر أن السيف أداة لإبراز قوّة حامله وشجاعته، فبقدر شجاعته يكون مضاء السيف، لذا فالجبان سيفه على شاكلته لا يغني عنه شيئاً ولا يُحامي بدلاً عنه، فيبدو كليلاً ضعيفاً.

(٣) العماد الواحد عمادة: الأبنية الرفيعة. القمم: الرؤوس. المواقد، الواحد موقد. يخاطب الشاعر الأمير، فبه نبه صيت العرب وارتفع بناء مجدهم فإذا بهم يجعلون رؤوس الملوك أثافي لمواقدهم إمعاناً بإذلالهم لإخضاعهم لإرادة الأمير.

(٤) فالعرب ينتسبون إلى الأمير، إنه سرّ عظمتهم وحقل فخرهم الذي يجتنون منه ثمار أمجادهم، والكلّ يعودون إلى عدنان جدّهم الأعلى، مما يدلّ على تاريخ عريق في السؤدد والعظمة.

(٥) يخاطب الشاعر ممدوحه، إنه يقتل بسيفه من أراد، ولقد أغدق على الشاعر إحساناً وجوداً عظيماً فأحياه، فجعله مستعبداً يغمره خير الأمير ورفده، فكان موته موت حياة وسعادة.

(٦) يُعبّر الشاعر عن حيرته ودهشته لدى رؤية الأمير فإذا بلسانه يعجز عن إبداء إعجابه به وذكر امتنانه له.